ملاحظات عامة

القراءة الرخيصة — أحاديث السيدات — حرمة البيوت
مفارقات العصر

(١)

القراءة ينبوع التجدد ، والذى لا يقرأ ينكمش شيئا فشيئا ، وتتضاءل شخصيته كلما تقدمت به الحياة ، ويخسر عن الموجة العقلية فى عصره فيرتد إلى عصر سابق ، ويبدو قطعة أثرية قديمة ليس لها قيمة الآثار !

ولكن ماذا يقرأ الانسان ليتمتع بمزايا القراءة التى أسلفنا ؟ .

يجب أن يقرأ شيئا ذا قيمة ، شيئا يمنحه المعرفة ويعطيه ما ليس يملكه ، ويبعث فيه الطموح والإشراق ، ويوسع آفاق الحياة فى نظره ، ويكبرها فى عينيه ، فلا تعود وهى "الروتين" اليومى والوقائع التافهة التى تتكرر كل صباح ومساء .

واذا نظرنا إلى القراءة على هذا النحو حالنا ما نراه من حالة الشباب المصرى فى هذه الأيام ! إن هذا الشباب من الجنسين لا يقرأ أصلا ، وإذا قرأ فانما يلتهم المجلات والكتب الرخيصة ، يلتهم مجلات الخبر النافه والنكتة المؤذية ، وكتب الحادثة المثيرة والقصاية الرخيصة بينما المجلات الأدبية كاسدة ، والكتب الجدية بائرة .

إنه شباب فارغ ينشد التسلية ويخرج منها أفرغ مما دخل فيها ... إن خبر فلان الذى طلق فلانة وصورة الشاب الذى وقف أمام صوانه يستعرض "كرفتاته" ! وقصة المرأة التى سرقت زوج صديقتها ، وحكاية اللص الذى ضاق الشرطة . . . الى آخر هذا الكلام الفارغ هى التى تشغل فراغ شبابنا المصرى ، وحياتهم كلها فراغ .

وبينما يشتغل الشباب المصرى بهذا الهراء ، يلتهم شباب فلسطين وسوريا ولبنان والعراق والحجاز والسودان ومراكش وتونس ، كل ما تخرجه المطابع من الكتب العلمية والأعمال الفنية ، ويتتبعون آثار كبار الأدباء والعلماء فى مصر وفى العالم ، وينضجون بسرعة ، ويتولون زمام النهضة العربية باستحقاق .

فى مصر كتاب وعلماء الصف الأول ، وهؤلاء هم الذين يسترون موقفها بين الأمم العربيـة ، ويكسبونها مركز الزعامة ، ولكن الصف الثانى المتهيء للتقدم واحتلال المكان الأول ليس فى مصر ، لأن الشبان المصريين لا يقرءون إلا التافه ولا يتهيئون لأن يخلفوا كتاب الجيل الحاضر وعلماءه وشعراءه وفنانيه .

وإن الإنسان ليدهش اليوم وهو يرى السوق مليئة بمجلات تافهة كلها نسخ مكررة وكلها تستنفد وقت الحياة الثمين الذى تجود به الدنيا على الناس مرة واحدة فيضيعونه فى هذا الهذر، بدل أن يوسعوا آفاقه بالاطلاع المفيد .

إننى لأقرأ هذه المجلات أسبوعا ثم أهملها عدة أسابيع ثم أعود اليها فكأنما هى لم تتغير ولم تتجدد خلال هذه الأسابيع ، وكل ما حدث أن تغيرت الأسماء التى تقحمها فى أخبارها التافهة وفكاهاتها المبتذلة ، ولولا عملى الصحفى ما قرأتها ولا خسرت شيئا بإهمالها ، بل لكسبت الوقت ، والارتفاع النفسى عن هذه المقاذر، واحترام الحياة عن تقضيتها فى هذا العبث الذى لا يألفه إلا الفارغون .

إنها لعنة تصيب المصريين ولا حياة لها فى غير مصر من الأقطار العربية جميعا . فليتنبه لها المصريون !

(٢)

أصغ قليلا وأنت فى الترام أو القطار أو السينما أو المسرح الى ما يدور بين سيداتنا من الأحاديث — أو لا تصغ فستبلغك أصواتهن على الرغم منك ومن أصوات الممثلين والممثلات — تجد أنهن قد أخذن فى أحاديث عجيبة بصوت مرتفع كأنهن خطيبات فى قاعة للمحاضرات !

وماذا أنت سامع ؟ أحاديث عن أسرار عائلية لا ينبغى أن تذاع ، أو عن شؤون خاصة من تفصيل ملابس ، وشراء أثاث ، وخطوبة بنات ، وخصومة قريبات ، وأخبار حفلات... جميعها لا يعنى أحدا من الركاب أو النظارة ، وليس هذا مكانها المناسب ولا وقتها المختار، ولكنها تلقى من النوافذ وفوق المقاعد، وتصك الأسماع التى لا تريد سماعها ولا ينبغى لها أن تسمعها لولا " دردشة " السيدات .

لكأن هذه الألسنة قد ركبت فى أفواههن لغرض واحد هو أن تتحرك باستمرار فتثير ذات اليمين وذات الشمال على كل الآذان جميع ما ينبغى أن يصان، أو ما لا يستحق أن تشغل به الأذهان .

وتكون السيدة جالسة منفردة فإذا هي هادئة وقورة ، فما أن تدخل سيدة أخرى — تعرفها أو لا تعرفها سواء — حتى يذهب الهدوء كله ، ويتبخر الوقار كله ، وفى غمضة عين إذا هما متعارفتان و إذا هما تتحدثان فى أخطر المسائل وأتفهها على السواء ، و إذا بقية الركاب أو المتفرجين قد عرفوا موضوع الحديث بفضل ارتفاع الأصوات ، وقد يكون الموضوع من أخص شؤون العائلات !

فاذا قامت المعاثرات فى الملابس والمسكن والمركز الاجتماعى فهنا ينقلب الحديث مظاهرة. كل منهن تذكر أسماء بيكوات و باشوات — بلا مناسبة — إلا أن يعرف الناس أنهم من أقاربها أو معارفها وكل منهن تلوك أسماء محلات تجارية راقية ... حتى يعلم الناس أنها من زبائنها . وكل منهن اشترت كيت وكيت وخاطت فساتينها عند " مدام " فلانه حتى يسمع الناس بذلك الخبر العظيم . ولا تنفض المظاهرة حتى يقف القطار فى محطة الوصول أو عندما ينتهى العرض و يعزف السلام !

كل هذه ولا شك مظاهر من سوء الذوق ، ومن ضعف الشخصية ، يجب أن ننبه الى مقاومتها فى المدرسة عن طريق الارشاد والسلوك ، وفى الأسرة عن طريق الأمهات المثقفات ، حتى يكون لنا جيل آخر من السيدات .

(٣)

كثيرا ما تكون فى دارك بين أهلك وأسرتك ، فما تشعرون إلا وكلمة بذيئة أو جملة نابية أو حركة وقحة تقفز اليكم من النافذة أو تصعد اليكم من الطريق !

ما هذا ؟ إنهم جماعة ممن لا خلاق لهم يتبادلون الشتائم القذرة أو النكات الساقطة . أو واحد فقط يسلى نفسه فى الطريق العام !

مظهر لا نظن أن له مثيلا فى شعوب العالم جميعا .

و إنه ليعجبنى قول الأستاذ بيرم التونسى فى مناسبة من هذه المناسبات وهو يعدد المظاهر التى لا نظير لها فى العالم :

ولا واحد طالع يجرى ... وواحد تانى يجرى وراه
و يقول له أدينى حصلتك ... يا بن اللى أبصر أيه عملاه !

هذا اعتداء على حرمة البيوت منشؤه سوء التربية وتهاون الجمهور ، فلو أن هؤلاء الذين يعتدون على حرمة الأسماع فى البيوت الآمنة يجدون من سكانها مقاومة تردعهم ، لحسبوا حسابا للسكان .

على أن هناك اعتداء من نوع آخر أشد وأعنف، فهأنت ذا جالس فى دارك مع أهلك من نساء ورجال وفتيات وصبيان ، وإنك لتجهد نفسك فى تربيتهم وتقويم أخلاقهم ، وتحرسهم من الاختلاط بالأوساط الواطية، ولكن ها هو ذا راديو الجيران أو القهوة التى تحت المنزل يصب فى آذانكم جميعا " بلاش تبوسنى فى عينى " أو ها هو ذا المذيع يقول لك : " نحن فى صالة فلانة " وعليك أن تسمع أنت وأهلك ما يدور فى الصالات من فحش ولو لم تكونوا من رواد الصالات !

هذه حالة لا تطاق ، واعتداء على حرمة البيوت لا يغتفر ، واذا استطعنا أن نقاوم السفلة الذين يفرضون علينا سماع ألفاظهم القذرة وحركاتهم الوحشة، فكيف نستطيع أن نقاوم راديو الجيران و " ألو ألو تسمعون الآن " ؟

(٤)

كثيرون يتخبطون بين التقليد وبين التمسك بالتقاليد ، فلا هم محافظون ولا هم مجددون ولا هم شرقيون ولا هم غربيون ، ولا هم متدينون ولا هم إباحيون . . .

وتقع من هؤلاء مفارقات عجيبة مضحكة تدل على هذا التأرجح النفسى والفكرى ، وتدل فى الوقت ذاته على ضعف الشخصية واضطراب العقلية .

من هذه المفارقات أن يحتفل ناس بالعام الهجرى فى حفلات راقصة تدور فيها الكؤوس ، وتلتحم الخصور . ففيم كان الاحتفال بهجرة النبى الذى حرم دينه الخمور ونهى عن الاختلاط المثير ؟

ولكنها مفارقات العصر . . .

ومن هذه المفارقات أن يحتفل العائدون من الحج والعائدات ، على طريقة الاحتفال بالعام الهجرى فى سهرات ورقصات وكؤوس مترعات ، وما كان أغناهن عن الحج وعن الاحتفال ولكنها مفارقات العصر وما أكثر هذه المفارقات .

متى يثوب هذا الفريق من الناس الى شخصية قوية ، والى يقظة قومية ، والى اعتزاز بأنفسهم وأوطانهم ، ومباهاة بتقاليدهم وشعائرهم ؟

انهم سيثوبون يوم يجدون الاحتقار الصامت من الوطنيين الصميمين . المعتزين بقوميتهم ، الشامخين بأنوفهم ، لأنهم من سلالة أمة عريقة وشعب عظيم .